

**سياسة سلاطين
دولة المماليك البحرية
إزاء
ميناء أياص الأرمني**

الدكتور/ عبدالله بن سعيد محمد سافر الغامدي

جامعة أم القرى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ،
أما بعد .

فقد ذكر ابن العديم أن ميناء أياس (Lajazzo) ^(١) مسمى باسم أياس بن
ياوان بن يافث بن نوح عليه السلام ، فقد " ولدَ ياوان بن يافث أياس
والمصيصة وطرسوس وأذنة ، والروم من ولد هؤلاء ، وحلّوا بلادهم ،
فعرفت بأسمائهم على تخوم الروم ، طرسوس وأذنة والمصيصة وأياس " ^(٢) .
وقد اهتم الفاتحون المسلمون الأوائل منذ وصولهم إلى أطراف بلاد الشام

(١) لعل هذا اللفظ الذي يبدو أنه بالفرنسية - التي كثيراً ما يستخدم فيها حرف اللام في بداية
الكلمة - مأخوذ من أصل عربي وهو كلمة « مجاز » والمجاز يعني عند العرب المعبر من
البحر إلى البر أو المكان الذي تستخدمه المراكب كميناء أو مرفأً أو نحوه للوصول إلى
اليابس .

(٢) انظر : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ٢٢٢ ؛ ومصدر ابن العديم في هذا
هو ما ذكره من أنه وقع إليه كتاب في القاهرة يتحدث عن أنساب اليمن وأسماء ملوكها جاء
فيه أنه أتى معاوية بن أبي سفيان بشيخ كبير قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر اسمه
عبيد بن شريه الجرهمي ، فسأله عن مسائل ذكرها ، إلى أن ذكر له ولد يافث بن نوح فقال
يافث بن نوح ولد سبعة ذكور منهم جُومر بن يافث ، وماجوج بن يافث ، وماذي بن يافث ،
وياوان بن يافث ، وثوبان بن يافث ، وماشج بن يافث ، وتيراس بن يافث . قال : وولد ياوان
بن يافث أياس والمصيصة وطرسوس وأذنة ... » انظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٥ .
والذي يجدر ذكره أن أياس يسمى اليوم " بمرطة ليق " وهو أحد موانئ تركيا الحالية
(انظر : خليل ساحلي أغلو ، تغير طرق التجارة في القرن السابع عشر ، والتنافس بين
مينائي طرابلس والأسكندرون ، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد
الشام ، الذي انعقد بجامعة دمشق سنة ١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م ، ج ١ ، ص ١٣٩) .

في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، بالمدن الثغرية ^(١) الواقعة في إقليم جنوب غرب آسيا الصغرى ، حيث ظلت مدن هذه المنطقة طرسوس وأذنة والمصيصة وأياس وغيرها محل اهتمام حكام المسلمين " يهتمون بأمورها ولا يولونها إلا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة ، والأمور على هذه الحال مستقرة ، حتى ولي العواصم والثغور الأمير سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء بن حمدان " ^(٢) .

ويُفهم من هذا أن المسلمين سيطروا على ميناء أياس قروناً عدة ^(٣) . وقد قام هذا الثغر البحري بدور فاعل في خدمة الدولة الإسلامية على الحدود

(١) الثغور : مفردتها ثغر وهو مايلي دار الحرب ، أو كل موضع قريب من أرض العدو ، أو موضع المخافة من فروج البلدان . والثغور تنقسم ثلاثة أقسام ، البرية وهي التي تقارب وتلقى بلد العدو من جهة البر ، والبحرية وهي التي تلقاه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الأمران انظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٩ ؛ ابن شداد ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج ٣ ، ص ٧٧٣؛ فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ١ ، ص ١٣١ ؛ صابر دياب ، المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ص ٢٠ ؛ محمد العوفي ، دراسة في الثغور الإسلامية ، ص ١١ .

(٢) انظر ياقوت ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٠ ؛ وصف ابن ظافر الأزدى الدولة الحمدانية بأنها " من أرفع الدول عماداً ، وأثبتها أوتاداً وبيت أربابها من أنبه بيوت العرب ذكراً ، وأعلىها قدراً ، أما جرثومة النسب فتغلب ، وأما شعبه فربيعة ، جدهم الأقرب الذي ينسبون إليه هو مكاييد المحل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن رافع بن مسعود ابن دلهم بن عطيف بن سراقبة بن مخزومة بن جارية بن مالك بن غنم بن عدنان " (انظر: أخبار الدولة الحمدانية بالموصل و حلب وديار بكر والثغور ، ص ١١) .

(٣) لم أقف فيما اطلعت عليه من مصادر على تحديد السنة التي فتح فيها المسلمون ميناء أياس ، ولكن يبدو أن فتحها كان في ذات السنة التي فتح فيها المسلمون مدينة المصيصة المجاورة لأياس وهي سنة ٨٤هـ / ٧٠٣م (انظر: الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٦ ، ص ٣٨٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥) .

المتاخمة لدولة الروم البيزنطيين دفاعاً وهجوماً ، شأنه في ذلك شأن بقية الثغور الشامية الأخرى . إلا أنه يبدو أن أوضاع أياس تعرضت للتغيير كبقية مدن الشام الشمالية منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وذلك أن الروم البيزنطيين استغلوا ما حلّ بالدولة الإسلامية من ضعف وتفكك وانقسام ، تمثل في قيام دويلات إسلامية في المشرق وأخرى في المغرب^(١) . وحاول أباطرتهم استرداد الأراضي التي فتحها المسلمون منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، واللافت للنظر أن الركود الذي أصاب الدولة الإسلامية آنذاك اقترن بفترة إفاقة عظمى شهدتها بيزنطة خلال الفترة الممتدة بين سنتي ٢٥٣ - ٤١٦ هـ / ٨٦٧ - ١٠٢٥ م فقد نجح أباطرة بيزنطة خلال هذه الحقبة التي امتدت لأكثر من قرن من الزمان ، مثل باسيل الأول Basil I (٢٥٣ - ٢٧٣ هـ / ٨٦٧ - ٨٨٦ م) ونقفور فوقاس Nicephorus Phocas (٣٥٢ - ٣٥٩ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٩ م) وحنّا تزميسكس John Tzimiscas (٣٥٨ - ٣٦٥ هـ / ٩٦٩ - ٩٧٦ م) . في أن يفرضوا سيطرتهم على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، إذ نجح القائد البيزنطي الشهير حنا كوركواس John Curcuas ، الذي تولى شؤون آسيا الصغرى سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، وقاد حملات بيزنطية متتالية على أطراف آسيا الصغرى ، في تحقيق انتصارات متلاحقة ضد المسلمين وأجبرهم على التراجع إلى ما وراء حدودهم . كما نجح القائد البيزنطي نقفور فوقاس سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م في السيطرة على جزيرة كريت

(١) عن قيام الدويلات المستقلة ، انظر: محمد علي حيدر ، الدويلات الإسلامية في المشرق ، ص ٤٣ وما بعدها ؛ حامد غنيم أبوسعيد ، عصر الدول الإقليمية ج ١ ، ص ١٨٠ وما بعدها ؛ أحمد عدوان الدولة الحمدانية ، ص ٨١ وما بعدها ؛ فتحي أبويوسف ، المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال ص ٩٥ وما بعدها ؛ بدر عبدالرحمن محمد ، الأغلبية والأداسة في بلاد المغرب ص ٥ وما بعدها .

من يد المسلمين ، وبعد أن اعتلى عرش بيزنطة سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣ م ، استولت قواته على مدن الثغور الشامية - ويبدو أن أياس كان من ضمنها - فضلاً عن جزيرة قبرص التي خضعت لقواته سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥ م ، لينهي البيزنطيون بذلك معاناتهم جراء غارات المسلمين البحرية على شواطئ بحر إيجه والأناضول ، ثم توج نقفور انتصاراته على المسلمين سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩ م بالسيطرة على مدينة أنطاكية ذات الأهمية الدينية والسياسية والتجارية لبيزنطة^(١) .

وصفوة القول أن أياس خرجت من أيدي المسلمين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بعد سيطرة دامت قروناً عدة ودخلت - كما يبدو للباحث - كغيرها من مدن الثغور الشامية البرية والبحرية تحت حكم الروم البيزنطيين عندما نجح نقفور فوقاس في اكتساح المنطقة سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥ م . وكان الحكام الحقيقيون لهذه الثغور بما فيها أياس ، وحتى قدوم الصليبيين الغربيين إلى المنطقة في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، هم الأرمن المسيحيون الذي يدينون بالتبعية لبيزنطة^(٢) .

(١) لمزيد من التفصيل ، انظر: حسنين ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٥٦ - ١٥٨ ؛ صابر دياب ، المرجع نفسه ، ص ١٤٧ - ١٦٨ ؛ عمر كمال توفيق ، مقدمات العنوان الصليبي على الشرق العربي ، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، ص ١٦ - ١٨ ؛ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٠٠ - ٢٠٩ ؛ جوزيف نسيم ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) كان قيام مملكة أرمينية الصغرى في جنوب غرب آسيا الصغرى ، نتاجاً لهجرات أعداد غفيرة من الأرمن المسيحيين عن مواطنهم الأصلية ، إلى المناطق الواقعة غربي الفرات وشماله ، وذلك عشية فتح السلاجقة هضبة أرمينية ، وازدادت هذه الهجرة عقب انتصارهم الحاسم في ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م . حيث لجأ كثير من الأرمن إلى جبال طوروس التي تعرف عند العرب بالكام ، فضلاً عن إقليم قليقية وشمال الشام ، واختار الأرمن هذه =

وبعد وصول جموع الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق الإسلامي ، في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . رحب بهم الأرمن المسيحيون وقدموا لهم المساعدات الفعالة ، فأرشدوهم إلى الطرق المؤدية إلى إقليم الجزيرة الفراتية من ناحية ، وإلى مداخل الشام الشمالية من ناحية أخرى ، وقدموا لهم إمدادات ضخمة من المؤن والعتاد خلال حصارهم لمدينة أنطاكية الذي بدأه الصليبيون في ذي القعدة سنة ٤٩٠ هـ / أكتوبر ١٠٩٧ م . ويبدو أن ميناء أياص شكل مع بقية المدن الساحلية القريبة من أنطاكية مصدر تموين مهم للصليبيين إبّان حصارهم لها ، بما استقبله من إمدادات بشرية ومساعدات عينية كانت تصل تباعاً من الغرب الأوربي ، حتى نجحوا في اقتحام أحد بواباتها بعد حصار طويل تخللته خيانة عظمى ، وذلك في شهر جمادى الأولى ٤٩١ هـ / يونيو ١٠٩٨ م^(١) .

= المناطق لوعورتها ، وحصانتها الطبيعية، وبُعدها عن الطرق الرئيسة التي سلكها السلاجقة في غزواتهم ، وظلت هذه المناطق التي نزح إليها الأرمن تُعرف حتى أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بإمارة أرمينية الصغرى ، ثم تحولت إلى مملكة ، واستمرت تشكل شوكة في خاصمة الدولة الإسلامية حتى نجح المماليك المسلمون في القضاء عليها سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م (لمزيد من التفصيل ، انظر: سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٧٧ ؛ علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٣٢٣ ؛ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٣٤٨) .

(١) يكاد يجمع المؤرخون ، على أنه كان للخيانة دور أساسي في سقوط أنطاكية بيد الصليبيين . إذ كان يحرس أحد أبوابها رجل أرمني يدعى " فيروز " كان قد أسلم ثم ارتد ، سبق أن تعرض لإهانة من ياغي سيان ، فاهتبل فرصة حصار الصليبيين لأنطاكية ، بأن راسل الأمير بوهمند النورماني Bohemond ، ودبر معه مؤامرة سرية ، إذ اتفق معه على تسليم البرج له بعد أن يتظاهر بوهمند بهجوم كاسح عليه . ليغدو في نظر بقية الأمراء الصليبيين بطل اقتحام أنطاكية ، تمهيداً لإعلانها إمارة صليبية له (لمزيد من التفصيل ، انظر: ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ؛ ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ١٨٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ١٨٣ ؛ مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة ، ص ٦٤ - ٧٠ ؛ وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ وما بعدها .

ويبدو أن ميناء أياس ظل خاضعاً لنفوذ الأرمن المسيحيين طوال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، الذين أظهرُوا مهارة فائقة في الاحتفاظ بكيانهم وسط العواصف المتضاربة ، والمتمثلة في أطماع أمراء أنطاكية الصليبيين الذين حاولوا فرض هيمنتهم على هذه المنطقة بكاملها ، فضلاً عن حرص أباطرة بيزنطة على فرض سيطرتهم ولو اسمياً عليها^(١) .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذه الضغوط التي مارسها الصليبيون من جهة ، والبيزنطيون من جهة أخرى على الأرمن والتي تمثلت في تنافس كلتا القوتين في السيطرة على إقليم قليقية^(٢) ، حَدَّتْ بِأَمِيرِهِمْ لِيُوَ الثَّانِي إِلَى الارتقاء في أحضان زعماء الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة في الغرب الأوروبي ، الذين كانوا في أمسِّ الحاجة إلى مساعدة الأرمن لهم لإنجاح

(١) سعيد عاشور ، سلطنة الممالك وأرمينية الصغرى ، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٢) من الثابت أن الصليبيين حرصوا منذ وصولهم إلى المنطقة على السيطرة على هذا الإقليم ، فقد تنافس كل من الأمير تانكرد النورماني وبلدوين البولوني على السيطرة على هذه المنطقة سنة ١٠٩٧م / ٤٩١هـ ، ورغم أن الظفر كان من نصيب تانكرد ، الذي سيطر على مدن قليقية بعض الوقت . إلا أنه رحل عنها تاركاً بها حامية صغيرة ليتيح المجال أمام الإمبراطور البيزنطي الكيسوس كومنين الذي أرسل ثلثة من جيشه إلى المنطقة حيث تسلمت كبرى مدنها طرسوس وأذنه والمصيصة وذلك سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م ويعد أن أسس النورمان لهم أمانة في انطاكية دفعهم انشغال كومنين ببعض المشكلات الداخلية في دولته إلى الوثوب إليها حيث نجح تانكرد في السيطرة عليها مرة أخرى سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م إلا أنه لم ينعم بذلك النصر طويلاً ، حيث عاود البيزنطيون هجومهم على المنطقة واستعادوها منه سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م . ولعل هذا التنافس البيزنطي الصليبي على المنطقة هو الذي دفع أمراءها بعد ذلك إلى الارتقاء في أحضان زعماء الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة طمعاً في حماية استقلالهم ، وكذلك الحصول على تاج المملكة كما حدث لاحقاً . لمزيد من التفصيل انظر: وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ج ١ ، ص ٢٥٦ - ٢٧٢ ؛ فوشيه الشارترى ، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص ٥١ - ٥٢ .

مشروعاتهم الصليبية في سواحل الشام^(١) . فقبيل نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، تآقت نفس أمير أرمنية الصغرى ليو الثاني للحصول على لقب ملك يجعله يتمتع بما للملوك من سطوة وهيبة ، بعد أن ضاق ذرعاً بلقبه السابق الذي كان يشعر معه بأنه أقل مكانة من حكام القوى المجاورة . فاتجه إلى الإمبراطور فردريك الأول ببروسا Feredrick Barbarossa (٥٤٧ - ٥٨٦ هـ / ١١٥٢ - ١١٩٠ م) ، ينشد ذلك ، وعلى الرغم من أن بربروسا توفي قبل أن يفي بوعد ليو بإعطائه التاج الملكي فإن خليفته الإمبراطور هنري السادس (٥٨٦ - ٥٩٤ هـ / ١١٩٠ - ١١٩٧ م) ، حرص على تحقيق آمال ليو بأن أرسل إليه سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م كبير أمنائه يحمل إليه تاجاً ملكياً ، وتم تتويج ليو الثاني ملكاً في كنيسة طرسوس في شوال سنة ٥٩٥ هـ / يناير ١١٩٨ م ، بحضور عدد كبير من رجال الدين والقادة العسكريين^(٢) .

وبعد أن تحولت أرمنية الصغرى إلى مملكة ، غدت مدنها بما فيها ميناء أياس تتمتع بمكانة كبرى في الأوساط المسيحية في الشرق والغرب ، وهذا

(١) ذكر المؤرخون أن فردريك أرسل إلى ليو الثاني قبيل مغادرته الغرب الأوربي ، يخبره بقدمه إلى الشرق ، فاستعد ليو لتزويد الألمان بما يحتاجونه من مؤن وعتاد ، فعندما اقترب الجيش الألماني من حدود أرمنية الصغرى ، استقبل ليو بربروسا بكل ترحاب ، واتجه معاً إلى مدينة طرسوس للاستراحة بها بعض الوقت ، أملاً في أن يؤدي ذلك إلى تحقيق آماله بالحصول على التاج الملكي ، إلا أن غرق بربروسا في أحد أنهار قليقية في يونيه سنة ١١٩٠ م ، أصاب ليو بخيبة أمل كبيرة (العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٣٩٠ ؛ أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠٣ ؛ المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٤ ؛ ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٤ ؛ حامد زيان ، الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ، ص ٥٠ - ٥١ ، ٥٨) .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ؛ حامد زيان ، المرجع نفسه ، ص ٥٠ ، ٥١ .

بدوره ألقى على ملوكها مسؤوليات جساماً تجاه المشاركة في الحروب الصليبية منذ أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، تلك الحروب التي كان أوارها مازال مشتعلًا ضد المسلمين في سواحل الشام ومصر . الأمر الذي جعل إمارة حلب تنفرد - بحكم موقعها في شمال الشام - بمواجهة أخطار أرمينية الصغرى طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ^(١) .

وبعد قيام دولة المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية في مصر ثم الشام ، تنبه سلاطينها إلى خطر مملكة أرمينية الصغرى التي كانت تعد في نظرهم " أخبث عدو للإسلام " ^(٢) . خاصة بعد تعاونها مع المغول إبان اجتياحهم لأراضي المسلمين في العراق والشام في بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ^(٣) . فضلاً عن السياسة الاقتصادية التي انتهجها حكام مملكة أرمينية الصغرى ضد دولة المماليك في مصر والشام ،

(١) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٤١ .

(٢) انظر: المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ .

(٣) لم يكد ملوك أرمينية الصغرى يحسون باقتراب المغول من المشرق الإسلامي حتى رحبوا بهم، ورأوا فيهم القوة الضاربة التي بإمكانها أن تقضي على الوجود الإسلامي وتقوي السيطرة المسيحية على هذه المنطقة . خاصة أن المغول حتى ذلك الوقت مازالوا على وثنيتهم، وينظر إليهم المنصرون على أنهم مادة خام يسهل تشكيلها في قالب مسيحي ، يدعم ذلك وجود عناصر مسيحية في صفوف المغول ، فزوجة هولاكو دوقوز خاتون وأمه سيور قوقيتي كانتا مسيحيتين نسطوريتين ، أزرتا المسيحيين في كل البلاد التي سيطر عليها المغول . ولهذا فلا غرابة أن يسارع ملوك أرمينية الصغرى ، بتقديم العون والمساعدة للمغول ، بل وصل بهم الأمر إلى التحالف معهم يؤكد ذلك ما ذكر من أن هولاكو عندما هاجم إقليم الجزيرة قَدِمَ عليه جاثليق الأرمن ومنحه البركات ، كما أن الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام ، تقررت في اجتماع تم بين هولاكو وملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول ، وأنه طلب من هيثوم أن يوافيه على رأس قواته عند الرها (انظر: رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ٢ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ؛ الحركة الصليبية، ج ٢ ، ص ١٠٧٠ ، ١٠٧١) .

بهدف إضعافها اقتصادياً ، تلك التي وُظف فيها ميناء أياس الأرمني بشكل كبير . إذ يبدو أن أعداء دولة المماليك ، سواء المغول الذين اكتتوا بنارها ، جراء هزيمتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م^(١) ، أو الصليبيون الغربيون الذين بات ينتظرهم مستقبل مجهول أمام هذه الدولة الفتية رغم ما أبداه حكام بقايا مملكة بيت المقدس في الساحل من مرونة تجاهها^(٢) ، أو الأرمن المسيحيون الذين كانوا يعرفون أن سلاطين هذه الدولة لن يغفروا لهم تعاونهم مع المغول ضد ممتلكات المسلمين في بلاد الشام . فقد أدرك الجميع أن قوة هذه الدولة وتماسكها يكمن في تنامي نشاطها الاقتصادي الذي قام على أساس احتكار الجزء الأكبر من نشاط التجارة بين الشرق والغرب ، خاصة بعد انتعاش طريق البحر الأحمر ومصر عشية تدمير طرق التجارة البرية عبر آسيا إلى الغرب على يد المغول في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي^(٣) .

وقد لاحت الفرصة للملك أرمنية الصغرى وحلفائهم المغول لتنفيذ سياسة الحرب الاقتصادية ضد دولة المماليك المسلمين ، عندما استقر المغول

(١) عن هذه المعركة ، انظر: سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١١٣٣ وما بعدها ؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٣٠٨ وما بعدها ؛ السيد الباز العريني ، المغول ، ص ٢٥٧ - ٢٦٤ ؛ عبدالله الغامدي ، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، ص ١٠٥ وما بعدها .

(٢) كان الصليبيون قد استجابوا لطلب السلطان قطز ، بالسماح لقواته باجتياز المناطق الساحلية ، وهي في طريقها إلى عين جالوت ، وأبدوا استعدادهم لتزويد قواته بالمساعدات ، إلا أنه اكتفى بأن استخلفهم بأن يكونوا " لا له ولا عليه " (انظر: المقرئزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٣٠) .

(٣) كانت التجارة قبل الاجتياح المغولي تمر عبر الطريق الذي كان يعرف باسم طريق الحرير ، الذي كان يبدأ من الصين ، ثم يعبر التبت إلى شمال بحر آرال ومنه إلى جنوب بحر قزوين ، فألى طهران وبغداد ودمشق ، ومنها يتشعب إلى ثلاث جهات ، أولاها إلى بيروت ، وثانيها إلى صور ، وثالثها إلى أنطاكية . ومن هذه المدن إلى موانئ البحر المتوسط في أوروبا وإفريقية (محمود سعيد عمران ، المغول وأوروبا ، ص ٧٣) .

شرق الفرات وأصبح لهم إمبراطورية هناك ، مستخدمين في ذلك ميناء أياس . إذ بدأ المغول في تشجيع التجار على أن يرتادوا الطريق البري القديم القادم من الصين ، ويجتاز تركستان إلى شمال بحر قزوين ، ومنه إلى مواني البحر الأسود ، فضلاً عن طريق تجاري آخر يبدأ من الصين ، ويجتاز بلاد فارس إلى سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل طرايزون ، أو إلى ميناء أياس الواقع في جنوب شرق آسيا الصغرى ، فضلاً عن أن سيطرة المغول على بلاد العراق ترتب عليها ، أن جانباً من تجارة الشرق كانت تصل إلى بغداد عبر الخليج ، ومنها إلى دمشق أو حلب ، ثم المدن الساحلية التي كان يسيطر عليها الصليبيون ، ومنها إلى ميناء أياس حيث يتم عن طريقه تسويق البضائع إلى جميع المواني الأوربية^(١) .

ويتضح من هذا مدى الضرر الذي لحق بتجارة الممالك عبر البحر الأحمر ومصر ، بعد تحول التجارة القادمة من أواسط آسيا وجنوبيها عبر الطرق البرية والبحرية التي استحدثها المغول إلى ميناء أياس الأرمني . الذي أصبح ميناء يكتظ بالتجار من جميع الجنسيات وكان " الإفرنجي يتاجر مع المسلم " ^(٢) ولعل مما زاد هذا الميناء أهمية في ذلك الوقت ، إقدام ملوك أرمينية الصغرى أحياناً على إعفاء التجار الأوربيين من الضرائب والرسوم ، ومتى دعت الحاجة إلى فرض شيء من ذلك ، فقد حرصوا على فرض نسبة قليلة تتراوح من ١ إلى ٤٪ الأمر الذي أضفى على ميناء أياس قوة جذب قوية ، حيث تقاطرت عليه قوافل التجارة القادمة من مواني الغرب الأوربي ،

(١) محمود سعيد عمران ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ ، ٧٤ ؛ انظر أيضاً: كلود كاهن ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص ٢٦١ .

(٢) انظر: هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٣١٦ ، ترجمة ، أحمد رضا ، مراجعة عز الدين فوده .

كما كان لتنفيذ فكرة الحصار الاقتصادي على مصر في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، التي تزعمها البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) بعد أن فشل في استشارة الغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية جديدة ، عشية استرداد الأشرف خليل بن قلاوون مدينة عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م^(١) . أكبر الأثر في ازدياد نشاط حركة التجارة بميناء أياس ، حيث غدا الموئل الوحيد لهؤلاء التجار لكونه حتى ذلك الوقت مازال يقبع في أراض مسيحية^(٢) ، تُعد خارج مناطق الحظر الذي فرضته البابوية آنذاك على دولة المماليك في مصر والشام ، ولهذا أكثر التجار من ارتياد مينائها قادمين من البندقية وجنوة ، ومن أماكن أخرى كثيرة ، يتجرون في التوابل والعقاقير مختلفة الأنواع وفي منسوجات الحرير والصوف ، وغير ذلك من السلع الثمينة ، وجرت العادة أن من أراد السفر إلى بلاد المشرق يقصد ابتداءً ثغر أياس^(٣) . ويبدو أن تركيز التجار الأوربيين على الاتجار مع ميناء أياس الأرمني ، جعلهم يحرصون على تنظيم قوافلهم إلى هذا الميناء . فقد أشار

(١) عن استرداد الأشرف خليل مدينة عكا ، انظر: بيبرس الدودار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج٩ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ ؛ التحفة الملوكية ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ج٨ ، ص ١١٢ ؛ الحريري ، الإعلام والتبيين ، ص ١٠٦ ؛ المقرئ ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٥ ، ٦ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١١٨١ ؛ حامد غنيم أبوسعيد ، الجبهة الإسلامية ، ج٣ ، ص ٢٢٠ ؛ عبدالله الغامدي ، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٩ ؛ والأشرف: هو خليل بن قلاوون ، تسلطن في يوم الأحد سابع ذي القعدة من سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، ومات مقتولاً سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م ، انظر ابن شاهين الملطي ، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٨١ - ٨٣ .

(٢) هايد ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٦ ؛ سعيد عاشور ، الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية ، في كتاب بحوث ودراسات في العصور الوسطى ، ص ١٥٥ .

(٣) انظر: رحلات ماركو بولو ، ج١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، ترجمها إلى الإنجليزية : وليم مارسدن ، ونقلها إلى العربية : عبدالعزيز أجاويد .

هايد Heyd إلى أن سفن البنادقة مثلاً تبحر من الغرب الأوربي في كل عام وفق تواريخ محددة باتجاه ميناء أياس مروراً بجزيرة قبرص ، حتى إن الصفقات التجارية التي كانت تُعقد في أياس تُحدد بتاريخ وصول هذه السفن . كما يبدو أن ذلك النظام الدقيق الذي انتهجه التجار البنادقة في تعاملهم في ميناء أياس ، قد أثار غيرة منافسيهم الجنوبيين ، الذين حرصوا على أن يكون لهم في أياس سوق يمتلكونه وكنيسة ملحق بها مقبرة ، فضلاً عن تعيين قنصل بها يعاونه مجلس ينظم علاقات الجالية الجنوبية بحكومة البلد ، حيث نجح عام ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م في عقد اتفاق عام بين الأميرال " بنديتو زكريا " مفوض جمهورية جنوة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وملك أرمينية الصغرى ليو الثالث Leo III (١٢٧٠ - ١٢٨٩ م)^(١) . ويبدو أن هذا التنافس بين البنادقة والجنوبيين لم يقتصر على تحقيق المزيد من الامتيازات التجارية في أياس ، بل تعداه إلى صراع دموي بين الطرفين ، فقد حدث في عام ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م أن دمر تيو فيلو مورو سيني Teofilo Morosini قبطان إحدى السفن الفينيسية سوقاً يمتلكه الجنوبيون في أياس^(٢) . إلا أن هذا الحادث لم يؤثر على النشاط التجاري للجنوبيين في هذا الميناء ، بل استمر تجار جنوة في أياس يستوردون من الغرب نبيذاً وزيتاً وجبناً وشعيراً وجوخاً وأقمشة من جميع الأنواع ، ويصدرون منها توابل كالزنجبيل والفلفل والنيلة والسكر وخشب البقم والقطن الخام والمغزول والحديد والجلود والماشية ، فضلاً عن العبيد مع مراعاة عدم السماح ببيع المسيحيين منهم للمسلمين بطريق مباشر أو غير مباشر . كما يبدو أيضاً أن ذلك النشاط التجاري الكبير الذي شهده ميناء أياس آنذاك ، قد شجع تجار الغرب الأوربي على توسيع نطاق تجارتهم

(١) أنظر تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ج٢ ، ص ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٢) هايد ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢١ .

ليشمل بقية مدن مملكة أرمينية الصغرى ، حيث يذكر هايد أن أياس لم تكن تستغرق كل اهتمام البنادقة ، بل كانوا إلى جانب ذلك يمارسون نشاطهم التجاري في كل أنحاء أرمينية الصغرى في سيس Sis والمصيصة Mamistra وأذنه Adana وطرسوس Tarsre ، وحصلوا ثمة علي ممتلكات وامتيازات ، وأظهروا غيرة في عملهم ، ونجحوا في الحصول لتجارته في هذه المدن على التسهيلات نفسها التي كانت لهم في أياس^(١) . هذا بالإضافة إلى أن ذلك الرواج الذي شهدته مدينة أياس -والذي جعل منها واسطة عقد الطريق التجاري بين أوروبا وآسيا ، ترد وتصدر منها البضائع إلى هاتين القارتين - دفع حتى بعض ضعاف النفوس من تجار البلاد الإسلامية إلى الاتجار معها ، غير أبهين بذلك الحظر الذي كانت تفرضه البابوية على موالي دولة المماليك

(١) هايد ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٨ ؛ سيس : مدينة مشهورة بأرض الروم ، بين أنطاكية وطرسوس ، وصفها ياقوت بأنها كانت في أيامه " أعظم مدن الثغور الشامية " امتازت بكثرة خيراتها وثمارها ، وأهلها خليط من المسلمين والنصارى (انظر: معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٩٧ ؛ وانظر أيضاً القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٣٧) ؛ والمصيصة : مسماة فيما زعم أصحاب السير باسم الذي عمرها ، وهو المصيصة بن الروم بن اليفز بن سام بن نوح ، وهي عبارة عن مدينتين يفصل بينهما نهر جيحان ، فعلى الجانب الغربي منه المصيصة والشرقي كفر بيان ويسمياها البعض بغداد الصغيرة لأنها " كانت جانبيين على النهر " (انظر: ابن العديم ، بغية الطلب ، ج١ ، ص ١٥٣ - ١٥٦ ؛ وانظر أيضاً الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ ؛ ابن حوقل ، المصدر نفسه ق١ ، ص ١٦٨ ؛ ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٩٠ ؛ ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، ص ٥٠ ؛ ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ؛ علية الجنزوري ، الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، ص ٦١ ؛ وأذنة : مدينة من الثغور قرب المصيصة ، على نهر سيحان ، وبالقرب منها توجد القنطرة الحجرية التي تعلو النهر ، ويرجع بناؤها إلى عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول (٥٢٧ - ٦٥٠م) انظر: ياقوت ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٣٣ ؛ علية الجنزوري ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ؛ وطرسوس مسماة على ما يبدو باسم الذي أنشأها وهو ترسيس (طرسوس) الابن الثاني لجافام Japhan بن يافث، وهي من أجل الثغور (وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص ٣٥٤ ؛ ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٤) .

المسلمين في مصر والشام . يؤكد هذا ما ذكر من أن غو العلاقات التجارية بين قارتي أوروبا وآسيا عن طريق أياس ، عاد بالفائدة على سكان الأقاليم الواقعة خارج حدود مملكة أرمينية الصغرى ، فصار في مقدورهم باستخدام الطرق التجارية المؤدية إلى هذه المدينة النفاذ إلى الساحل وأن يتاجروا مع مدن الغرب التجارية . بدليل أنه عندما استولى أمير البحر الجنوبي لوكيتو جريمالدي Luchetto Grimaldi سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م في ميناء قريبا قوس Korykos (Curco) الأرمني على سفينة كبيرة تحمل بضائع ثمينة ، طالب أصحاب تلك البضائع بتعويض عنها ، وكان من بينهم أرمن من أياس وسوريون من عكا وصور وأنطاكية ، وبعض رعايا خان المغول أبغا ابن هولالكو (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ / ١٢٦٤ - ١٢٨١ م) ، وكان مسلمو سورية يجلبون إلى سوق أياس كميات كبيرة من القطن ، وثمة شخص من بغداد يدعى يوسف كان - على ما يبدو - يملك بها متجرأ مستديماً^(١) .

وإزاء هذا كله أدرك سلاطين المماليك أنه لابد من مواجهة هذه الحرب الاقتصادية ، التي أثرت بشكل مباشر وغير مباشر على اقتصاد دولتهم في مصر والشام ، حيث بدأوا في شن حرب شعواء لا هوادة فيها ضد مملكة أرمينية الصغرى عامة وميناء أياس خاصة . ويبدو أن أول هجوم مملوكي استهدف ميناء أياس ، كان إبان الحملة التأديبية التي شنّها السلطان الظاهر بيبرس^(٢) (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، لمعاقبة مملكة أرمينية

(١) انظر: هايد ، المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٣١٦

(٢) هو بيبرس البندقدار نسبه إلى أيدكين البندقدار الذي كان أول أمره مملوكاً له ، قبل أن ينتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تسلطن بعد قتل المظفر قطز سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ومات في سابع عشر محرم سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م . (انظر: ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٤٦ - ٤٨ ؛ ابن شاهين الملطي ، المصدر نفسه ، ص٧٤ - ٧٦) .

الصغرى ، سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م ، بسبب تحالف ملكها هيثوم الأول (٦١٩ - ٦٦٨هـ / ١٢٢٢ - ١٢٦٩م) مع المغول عند غزوهم بلاد الشام سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، ومشاركتهم القتال ضد المماليك في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م^(١) . فعلى الرغم من محاولة هيثوم إظهار ندمه على فعلته تلك ، واسترضاء بيبرس ، بإرسال وفد من قبله على مستوى عال ، يحمل رسالة وهدايا ثمينه ، في محاولة منه لثنيه عن عزمه غزو مملكة أرمينية الصغرى . إلا أن بيبرس الذي كان يدرك تمام الإدراك أن هيثوم لم يكن صادقاً فيما أبداه من تظاهر بحسن النوايا ، وأنه لن ينفك عن المشاركة في دعم الوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام ، فضلاً عن اتصاله المستمر بحكام مغول فارس ، بهدف حياكة الدسائس والمؤامرات ضد دولة المماليك المسلمين . رفض استقبال رسله ولم يسمع رسالتهم^(٢) ، وقرر أن يوجه إلى أرمينية الصغرى ضربة موجعة ، جراء ما اقترفته . حيث انتهز فرصة غياب هيثوم عن بلاده - إذ كان قد ذهب إلى تبريز يستعدي مغول فارس ضده - فجرد حملة كبيرة إلى بلاده في ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م ، تمكن

(١) من الثابت أن الجيش المغولي عندما غزا بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، كان يضم كتيبة أرمينية ، وعندما شرع هولاكو في غزو بلاد الشام اشترك هيثوم الأول في وضع الخطة العسكرية لهذا الغزو ، واتفق مع هولاكو على أن يلتقي به على رأس جيش كبير عند الرها ، وبالفعل شارك هيثوم ويصحبه زوج ابنته بوهيمند السادس أمير أنطاكية الصليبي المغول غزوهم لبلاد الشام وكذلك صدّاهم مع المماليك في معركة عين جالوت (انظر: عاشور، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١١٢٣ ؛ محمود عمران ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٢٤ .

(٢) شافع بن علي ، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، ص ١٠٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٩٣ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ٣٤٣ .

رجالها من دخول عاصمته سيس ، وألحقوا بها أضراراً بالغة " وجعلوها خاوية على عروشها وأصبح عاليها سافلها " ثم توجهت ثلة من جيشه تحت قيادة الأمير قلاوون الألفي ^(١) ، للإغارة على مدن الثغور " المصيصة وأذنه وأياس وطرسوس " وكبدها خسائر فادحة ، وعادت الحملة وقد غنمت " مالا يعد ولا يحصى حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ، ولا يوجد من يشتريه ، وكانت ذبائح العسكر في كل يوم جملة من البقر والجاموس والأغنام " ^(٢) . ويبدو أن معظم هذه الغنائم كانت من ميناء أياس ، الذي كان سوقاً كبيراً على ساحل البحر تتقاطر عليه القوافل التجارية من الشرق والغرب .

وبعد هذه الضربة الموجهة ، التي وجهها جيش بيبرس إلى ميناء أياس ، والتي أعقبها حالة اكتئاب شديدة انتابت زعيم مملكة أرمينية الصغرى هيثوم الأول ، اضطر على إثرها إلى اعتزال الحياة السياسية ، وتسليم مقاليد الحكم ابنه ليو الثالث ، الذي كان قد أطلق سراحه للتو من أسر بيبرس ^(٣) . تعرضت

(١) هو الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي ، تولى السلطنة في مصر يوم الأحد ١٢ رجب سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م ، وتلقب بالملك المنصور ، كان رجلاً مهيباً شجاعاً ، توفي يوم السبت ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م (انظر: ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٤٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ؛ ابن دقماق ، الجواهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ؛ وانظر أيضاً: ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج ١ ، ص ٣١٠ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ١ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ؛ ابن الشحنة ، الدر المنتخب من تاريخ حلب ، ص ١٨٧ .

(٣) كانت قوات بيبرس قد أسرت ليو إبان غارتها على أرمينية الصغرى ، وحُمل إلى مصر حيث ظل أسيراً بها ، حتى افتداه والده هيثوم ، بأن وافق على شروط بيبرس على أن يتنازل له عن عددٍ من القلاع والحصون وهي بهسنا ودريساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد ، فضلاً

مدن قليقية ومنها أياس في ١١ شعبان سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م لزلزال عنيف دمر الكثير من تحصيناتها ومرافقها ، وهلك على إثره عددٌ كبيرٌ من سكانها^(١) ، ونظراً لأهمية ثغر أياس بما كان يمثل من أهمية اقتصادية لا غنى لمملكة أرمينية الصغرى عنها ، فقد أولاه ليو الثالث جل اهتمامه ، وقدمه على بقية مدن الإقليم ، بأن أصلح ورم مالق بهذا الميناء من خراب ، جراء غارة جيش بيبرس عليه ، فضلاً عما دمره الزلزال ، وإمعاناً منه في زيادة تنشيط حركة التجارة في أياس ، عمل على إذكاء روح المنافسة بين بعض مدن أوربا التجارية ، بأن منح تجار البندقية سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م امتيازات تجارية خاصة فيه . ونجح بذلك في إعادة ميناء أياس إلى سابق عهده سوقاً تجارياً نشطاً تلتقي فيه قوافل التجارة القادمة من الشرق والغرب^(٢) . يؤكد هذا ما ذكره ابن العبري من أن بعض رعايا بيزنطة في قليقية أرادوا أن يغدروا بالملك ليو الثالث سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ، إلا أنه تمكن من كشف مؤامرتهم ، وأهلك من قبض عليه منهم بينما لجأ بعضهم إلى قلعة عين زربة . فاستدعى ليو " بطريك أنطاكية اليوناني " أفتموس الأول (١٢٥٨ - ١٢٧٣م) وسيره إليهم ، وأقسم لهم إن انحدروا من القلعة فلن يؤذيهم ، غير أن البطريك أسرّ إليهم أن " امكثوا مكانكم وإلا فإنكم تهلكون جميعاً " ثم عاد إلى ليو وتظاهر بعدم طاعتهم له ، فعلم الملك بما جرى ، فأنزلهم بالقوة ، وبطش بهم . ثم قبض على البطريك ، وأمر بترحيله إلى القسطنطينية . . . ، ولما سلمه الجنود ليمضوا به إلى القسطنطينية ، مَضَوْا به إلى أياس ، حيث بنوا له خيمة على ساحل البحر ودخلوا المدينة " ليبتاعوا طعاماً ، واستغرقوا في

عن التوسط لدى المغول بإطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر (انظر: ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ : المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ : شافع بن علي ، المصدر نفسه ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ : أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ص ٥ .

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٥٠ : العيني ، عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

شرب الخمرة إلى الليل " ^(١) . ويجلى من هذا أن ميناء أياس إلى جانب أهميته التجارية ، كان يمثل حلقة وصل بين القسطنطينية ومملكة أرمينية الصغرى .

ورغم هذا الانتعاش المتجدد الذي شهده ميناء أياس آنذاك . فإن سلاطين الممالك في مصر ما فتئوا يتحينون الفرص المناسبة لتوجيه الحملات إلى أراضي أرمينية الصغرى عامة وثمر أياس خاصة ، ففي سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م حدث أن توجه ثلاثون رجلاً من فقراء المسلمين من أطراف بلاد الشام إلى مملكة أرمينية الصغرى " يريدون زيارة قبر الخليفة المأمون المدفون في طرسوس " - على حد تعبير ابن العبري - وظن الأرمن أن السلطان بيبرس معهم " وقد تنكر يريد جساً سائر الدول " فقبض عليهم ملك أرمينية الصغرى ليو الثالث وزج بهم في غياهب السجون ، وأخذت رسل بيبرس تترى إلى ليو في طلب المحبوسين ، وعندما رفض إطلاقهم ، احتشد خمسمائة فارس من جيش الممالك وزحفوا إلى قليقية فقاومهم الأرمن وهزموهم ، فأرقدتهم بيبرس بنحو ثمانية آلاف ، وباغتوا أراضي أرمينية الصغرى " ووصلوا إلى أياس " وفتكوا بمن وجدوه فيها من الأرمن وألحقوا بالميناء أضراراً فادحة ، ثم انصرفوا عنها في غنائم وافرة وذلك في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م . ^(٢) .

(٢) انظر: سعيد عاشور ، سلطنة الممالك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢٥٥ .

(١) انظر: تاريخ الزمان ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ؛ وعين زربة ، من أهم مدن الشغور الشامية المشهورة ، كانت مفتاح الطريق إلى سوريا من جهة بلاد الروم . عرفها الصليبيون باسم Anazarbus أو Anazarbe (عليا الجنزوري ، المرجع نفسه ، ص ٦٨ ، ٦٩) .

(٢) ابن العبري ، المصدر نفسه ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

كما ذكر ابن عبدالظاهر أنه بعد أن آل الأمر في دولة المماليك إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) وردت في سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨٠ م أخبار من مدينة حلب بأن " الغيَّارة " توجهوا بأعداد كبيرة إلى بلاد الروم البيزنطيين ، وصادفوا في طريقهم إليها قافلة تجارية تقدر بمائتي جمل خارجة من بلاد أرمينية الصغرى ، فغنموها " وكانت موسوقة سكرأ وصابوناً وفسثقاً ورصاصاً " ^(١) . ويظهر أن جميع هذه البضائع قدمت إلى أرمينية الصغرى عن طريق البحر ، وأنها أفرغت في ميناء أياس ثم وُسِّقت وحُمِلت على ظهور الجمال لنقلها براً بهدف تسويقها في مدن بيزنطة الداخلية ، ولاشك أن غنمها من قبل أهل حلب بمثابة لطفة أخرى وجهت إلى أياس ، لما سببه ذلك من تناقص في ثقة مَنْ يتعامل مع هذا الميناء من التجار .

وفي سياق الضربات الموجهة التي وجهتها قوى دولة المماليك إلى ميناء أياس بسبب منافسته الكبيرة لمواني دولة المماليك على سواحل مصر والشام ، مذكَّر من أنه نتيجة لتحالف قوى مملكة أرمينية الصغرى بزعامه ملكها ليو الثالث مع قوى دولة مغول فارس إبان عبورهم الفرات لغزو مدن بلاد الشام سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م ، وأنه بعد هزيمتهم في معركة حمص الشهيرة في السنة ذاتها . احتشد جماعة - وصفهم ابن العبري - بأنهم " لصوص المعديين والتركمان والأكراد " وزحفوا إلى إقليم قليقية حيث توغلوا فيه حتى وصلوا إلى أياس نفسها ، فوجدوا أهلها قد انهزموا إلى البحر ولاذوا بقلعة

(١) ابن عبدالظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ١ ؛ والغَيَّارة : يبدو أن المقصود بهم هنا ، السرايا التي كانت ترسل للإغارة على بلاد الروم ، وتعود ، فيما عرف بالكر والفر .

جديدة كانوا قد ابتنوها هناك . فدخل هذا الجمع البلد ، واحتوا على غنائم وافرة ، ثم عادوا ، بعد أن أشعلوا النار فيها ، وذلك في سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م^(١) .

أما بالنسبة للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، فإنه بعد نجاحه في إفشال محاولة إيلخان مغول فارس أرغون بن أبغا (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ / ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) السيطرة على مدن الشام الشمالية ، وإجبار قواته على التراجع إلى ماوراء الفرات ، بعد أن أثخن فيهم قتلاً وأسراً . أراد تأديب ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى ، جراء مشاركته المغول في هذه المحاولة الفاشلة ، إلا أنه تراجع عن عزمه القيام بتلك الحملة التأديبية ضد أرمينية الصغرى ، لعلمه أن خان المغول سيهب لنجدتها ، بمجرد سماعه بمسيره إليها . خاصة بعد أن نما إليه نبأ سفر ليو بنفسه إلى بلاط المغول في فارس ، يطلب رسمياً مساندتهم ، إن تعرضت بلاده لأي هجوم من قبل دولة المماليك^(٢) . فضلاً

(١) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ٣٤٢ ؛ عن غزو المغول بلاد الشام ، وهزيمتهم في معركة حمص (انظر: بيبرس الدوادر ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ص ١٧٨ - ١٨٤ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣١٥ - ٣١٧ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ ؛ ابن أبيك الدوادر ، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، ص ٢٤٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، ٨٣) .

(٢) انظر ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢٥٨ ؛ وإيلخان : كلمة تركية مركبة من لفظين هما : إيل وتعني تابع ، وخان بمعنى حاكم أو ملك أو رئيس عشيرة ، وبهذا يكون معنى إيلخان : الملك التابع ، أي حاكم إحدى ولايات الدولة المغولية ، ويتبع الخان الأعظم في مدينة قراقورم عاصمة إمبراطورية المغول الأساسية ، وقد أطلق لقب إيلخان على بيت هولاكو ، ابتداءً من ابنه أبغا ، عندما أسند إليهم ، حكم إقليم فارس ، ثم ألصق هذا اللقب بحكام هذا الإقليم ، بعد استقلالهم عن دولة المغول الأم (انظر: =

عن أن ذلك الأمر ربما دفع بقايا الصليبيين في ساحل بلاد الشام إلى الانتفاض ودخول المعركة ضده ، الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى تشتت قواته في أكثر من جبهة . ولهذا اكتفى قلاوون بمهادنة الأرمن ، بعد أن توسل إليه ليو الثالث في الموافقة على ذلك ، بأن أرسل إلى السلطان قلاوون ، أحد زعماء الداوية يحمل هدايا ورسالة منه ومن مقدم الداوية ببلاد الأرمن مضمونها " السؤال في صاحب سيس ، وطلب العفو عنه ، وقبول العذر " وهنا يذكر ابن عبد الظاهر أن قلاوون لم يقبل شفاعته مقدم الداوية ، إلا لأنه كانت له عنده " خدمة تستوجب إجابة سؤاله في ذلك ، وإقامة حرمة بقبول شفاعته " . وعلى أي حال فقد طلب قلاوون إخضار التقدمة وكانت عبارة عن فضيات وأقمشة وغير ذلك ، ثم قرر عليه قطيعة ، يحملها إليه كل سنة قدرها ألف ألف درهم قطيعة من دراهم وأصناف ، كما اشترط عليه أيضاً ، إطلاق جميع التجار المسلمين المعتقلين لديه بأموالهم وبضائعهم ، ومن مات منهم يطلق عوضه أسير مثله ، ومعه مال المتوفى منهم ، فضلاً عن إطلاق سراح ما عنده من أسرى الحرب المسلمين ، ولم يجز ليو الثالث على رفض أي من هذه الشروط ، بل وافق على إخضار " سنة معجلة من هذه القطيعة " وحررت بذلك هدنة بين الطرفين أمدتها عشر سنين ، أولها يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر من سنة ٦٨٤ هـ / يونيو ١٢٨٥ م ، واستقرت الأمور بين الطرفين على هذا الحال ، وانتفعت خزائن دولة المماليك بهذه الأموال التي تُحمل إليها كل سنة ^(١) . والذي لا شك فيه أن هذه الهدنة شملت أياس

=عبد السلام عبدالعزيز فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ٤ ، حاشية رقمه () .

(١) انظر: ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ٩٢ - ٩٤ ؛ والداوية : هي طائفة =

ميناء أرمنية الصغرى الهام ، وبالنظر إلى بنود الاتفاقية التي عقدت على ضوئها هذه الهدنة ، يظهر لنا أن ميناء أياس الواقع على ساحل البحر ، تحمل العبء الأكبر من تلك الالتزامات المادية والعينية ، التي قبل ملك أرمنية الصغرى ليو الثالث دفعها كجزية لدولة الممالك ، إذ كان أياس هو مركز التجارة المهم الذي يُدر على هذه المملكة ، ما تحتاجه من أموال وحاجيات . كما يمكن القول : إن السلطان قلاوون نجح في تحويل مهمة هذا الميناء إلى منفذ ، تُحمل منه القطيعة المفروضة على أرمنية الصغرى إلى مواني مصر والشام ، وهذا في حد ذاته ، يُعد نصراً اقتصادياً حققه الممالك ضد أياس ، الذي كان قبل ذلك مركزاً تُشن من خلاله حربٌ اقتصادية لا هوادة فيها ، ضد مواني دولة الممالك في سواحل مصر والشام .

ولم يكتف قلاوون بذلك النصر الذي تحقق لدولته ضد مملكة أرمنية الصغرى عامة وميناء أياس خاصة ، بشكل غير مباشر من خلال بنود هذه الهدنة ، بل عمد إلى زيادة النكاية بأياس ، حيث أرسل إلى نوابه بالشغور يأمرهم بحسن معاملة التجار الأجانب ، وملاطفتهم والتودد لهم ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال ، بحيث لا تؤخذ منهم سوى الحقوق السلطانية^(١) ، في محاولة جادة منه لترغيب التجار الأجانب في الاتجار مع

=فرسان الهيكل Templers ، نشأت على أساس حربي منذ سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، واتخذت من ساحة المسجد الأقصى مقراً لها ، وتعهد أتباعها بحماية الطريق بين يافا وبيت المقدس ، ثم أسهم فرسانها في جميع الأعمال العدائية التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام ، وغدت هذه الطائفة تتبع المقر البابوي في روما ، وشكلت مع طائفة الاسبتارية Hospitallers دعامتين رئيسيتين للوجود الصليبي في بلاد الشام (انظر: علي الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٢١٧) .

(١) سعيد عاشور ، سلطنة الممالك ومملكة أرمنية الصغرى ، ص ٢٥٩ .

مواني دولة المماليك . يؤكد هذا مرسومٌ أصدره السلطان قلاوون للتجار الوافدين على مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم البيزنطيين في شهر ربيع الآخر من سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م ، جاء فيه " أنه من أراد من الصُّدور الأجلء الأكابر التجار وأرباب التكسب ، وأهل التسبب من أهل هذه الأقاليم التي عُدَّت والتي لم تعدد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد . . . ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر . . . والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم . . . إذ المطالب بها غير متعسرة ، والنظرة فيها إلى ميسرة ، وسائر الناس وجميع التجار ، لا يخشون فيها من يجور ، فإن العدل قد أجار . . . وهذا مرسوم ، إلى كل واقف عليه من تجار شأنهم الضرب في الأرض" ^(١) .

ويبدو أن هذه السياسة التي انتهجها السلطان قلاوون ، لإضعاف ميناء أياس اقتصادياً ، قد آتت أكلها يانعة ، إذ نجح من خلال ماكان يتمتع به من دراية في ميادين السياسة والإدارة إلى جانب خبرته الحربية ، في استغلال ظروف تخوفه من تدخل المغول لنجدة أرمينية الصغرى ، إن هو أقدم على مهاجمتها عسكرياً ، فضلاً عن كونه كان يعد العدة للهجوم على إمارة طرابلس الصليبية ، هدفه الأساس آنذاك في مشروع اقتلاع الوجود الصليبي من جذوره فيما تبقى لهم من نفوذ على ساحل بلاد الشام . في تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية جمة لدولته ، عبّر عنها ابن عبد الظاهر بقوله

(١) انظر المرسوم كاملاً في: ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ج ٨ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

«ولو فُتحت وعُمرت سيس (مملكة أرمينية الصغرى) لما فضل عن كلفتها هذا القدر»^(١).

ولم تقتصر جهود السلطان المنصور قلاوون ، لإضعاف ميناء أياص الأرمني على هذه المواجهات المباشرة ممثلة في قيام نوابه في الثغور بالهجوم على أياص ، بل تعدت ذلك إلى مواجهته بطريق آخر غير مباشر حيث استغل قلاوون الأخطار الخارجية التي تعرضت لها كل من سلطنة المماليك والدولة البيزنطية ، في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، والمتثلة في خطر مغول فارس والوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام . والتي أدت إلى نوع من التقارب بينهما وذلك منذ عهد السلطان بيبرس^(٢) . لإقامة علاقات تجارية مع مواني بيزنطة ، بهدف كسر الحصار الاقتصادي الذي كانت تفرضه أوربا على مواني دولة المماليك بإشراف المقر البابوي في روما ، فضلاً عن النكاية بميناء أياص الأرمني ، المستفيد الأول من ذلك الحصار . ولإنجاح هذا العمل فقد تعهد السلطان قلاوون ، بأن يوفر للتجار البيزنطيين الأمن والأمان وألا يلحق بهم أي جور أو ظلم ، وأن يوفر لهم الرعاية في الذهاب والعودة وفي السفر وفي الإقامة ، فضلاً عن حرية التنقل بمتاجرهم في الأراضي المصرية ، وذلك بشرط أن يتمتع تجار السلطان بمثل ذلك في أراضي بيزنطة ، وأن يسمح للتجار القادمين من بلاد سوادق^(٣)

(١) انظر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٩٢ ؛ والذي يجدر ذكره هنا ، أن المصادر العربية ، عندما تتحدث عن ملك أرمينية الصغرى تستخدم مصطلح " صاحب سيس أو ممتلك سيس أو بلاد سيس " .

(٢) للوقوف على تفصيل هذا التقارب ، انظر: ليلي عبد الجواد ، علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، العدد ٤٦ ، ٤٧ ، لسنة ١٩٨٦ م ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٣) من مدن مغول القفجاق « القبيلة الذهبية » تقع على الساحل الجنوبي الغربي للقرم ، كانت تعد أهم ميناء لدولة مغول القفجاق في ذلك العصر (انظر: ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ٨٥ ، حاشية رقم ١) .

بعبور أراضي الإمبراطور البيزنطي ، وهم في طريقهم إلى بلاد السلطان ، بمن معهم من ممالك وعبيد وجوار ، شريطة أن يلتزموا بدفع الرسوم المقررة عليهم ، وأن لا يكون هؤلاء المماليك والعبيد والجواري من المسيحيين ، لأن القوانين البيزنطية لم تكن تسمح بذلك ، كما نص الاتفاق الذي عقد بين السلطان قلاوون والإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس Michael Palaeologus (٦٦٠ - ٦٧١ هـ / ١٢٦١ - ١٢٨٢ م) في هذا الشأن ، على أنه في حالة إذا ما أراد السلطان أن يرسل بضائعه للمتاجرة ، وأن تكون هذه البضائع معفاة من الرسوم المقررة فليكن ذلك ، على أن تعامل بضائع الإمبراطور البيزنطي بالمثل في أراضي السلطان ، أما إذا أراد السلطان أن يسدد الرسوم المقررة على بضائعه مقابل السماح بعبورها أراضي بيزنطة ، فليكن له ما أراد مع مراعاة أن تعامل بضائع الإمبراطور بالمثل . ويبدو أن الاتفاق تطور إلى ما هو أبعد من ذلك ، فشمّل السماح بشراء بعض السلع النادرة التي قد لا تكون متوفرة في البلد الآخر ، فقد ورد في ثانيا الاتفاق المذكور ، أن الإمبراطور طلب من السلطان أن يسمح لمبعوثيه بشراء الجياد ونقلها إلى بلاده ، مقابل أن يصبح للسلطان الحق في أن يرسل من قبله من يشتري له ما يطيب له من خيرات بيزنطة^(١) .

ومن هذا يتضح أن هذه العلاقة الدافئة جداً بين المماليك والبيزنطيين ، وبالأخص في المجال التجاري ، كان لها بالغ الأثر في إضعاف المنافسة التجارية التي يشكلها ميناء أياس على مواني مصر والشام ، يؤكد هذا ما ذكر من أنه عندما اشترط الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن إضافة بند جديد للاتفاقية نص على ضرورة التعاون البحري " لمضرة العدو المشترك " في

(١) ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ٨٥ ، ٨٦ ؛ وللوقوف على نص الاتفاق ، انظر : ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ٢٠٤ - ٢٠٩ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٧٢ - ٧٥ .

إشارة ضمنية منه إلى مواجهة تجدد خطر شارل كونت أنجو Charles Count of Anjou^(١) على بلاده في عام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م^(٢) ، أنه عندما كاتب ميخائيل الثامن السلطان قلاوون ، لتكوين حلف دفاعي ضد ذلك العدو المشترك . فلا بد أن موافقة قلاوون على ذلك كانت مشروطة ، بأن يشمل هذا الحلف البحري أعداء الدولتين بلا استثناء ، إذ لا يستبعد أن يكون قلاوون قد وضع في اعتباره مواجهة ميناء أياس ، أو على الأقل تأمين خط سير قوافله التجارية إلى بلاد بركة خان^(٣) ، إبان عبورها أراضي بيزنطة " من أولها إلى آخرها بلا مانع ولا عائق ، (سواء) أرسلوا في بر أو بحر على ما تقتضيه مصلحة ذلك . . " ^(٤) . ويبدو لنا أن هذا الاتفاق البحري الشامل بين الطرفين ، حدّ كثيراً من خطر المراقبة البحرية ، التي كانت تفرضها البابوية على المراكب

(١) ينحدر شارل كونت أنجو ، من أسرة كابيه Capitian وهو ابن لويس الثامن Louis III ملك فرنسا (١٢٢٣ - ١٢٢٦ م) وبلانش القشتالية Blanche of Castile . ولد شارل في بداية عام ١٢٢٧ م بعد أشهر قليلة من وفاة أبيه ، وهو أخو لويس التاسع Louis IX المعروف " بالتقي " (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) الذي خلف والده في حكم فرنسا ، والذي قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر ، توفي شارل في يناير من سنة ١٢٨٥ م (لمزيد من التفصيل عن حياته ، انظر: محمود سعيد عمران ، شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي التي تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد السادس ، المجلد الأول ، مارس ١٩٩٨ م ، ص ١٦٩ وما بعدها) .

(٢) كان شارل قد فتح هذا العام من جديد باب المفاوضات مع البندقية ووقع معها معاهدة عُرفت بسم معاهدة " أور فيتو " اتفق بموجبها الطرفان على شن حملة صليبية جديدة ضد القسطنطينية ، وتعهدت فيها البندقية بتقديم أربعين سفينة ، وبعد أن وُقِعَ هذا الاتفاق ، أعد شارل مائتي سفينة في ميناء " مسينا " لنقل جنود حملته المرتقبة على القسطنطينية بهدف إعادة سيطرة اللاتين عليها (انظر: ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ٨٧ ، ٨٨) .

(٣) بركة خان هو زعيم المغول الذين عاشوا حول نهر الفولجا ، والذين عرفوا بمغول القبيلة الذهبية أو القفجاق « القبقاق » انظر: المقرئزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٣ .

(٤) انظر: ابن عبد الظاهر ، تشریف الأيام والعصور ، ص ٢٠٨ ؛ وانظر أيضاً: ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ٨٧ - ٨٩ .

التجارية الداخلة والخارجة إلى مواني مصر والشام ، وهذا بدوره أدى بلاشك إلى الإقلال من الهيمنة التجارية التي كان يشكلها ميناء أياص آنذاك .
بدليل ما ذكر من أن سفن دولة المماليك التجارية أخذت - في ظل التطور المتنامي الذي ساد العلاقات التجارية بين دولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية - تعبر مضيق الدردنيل والبسفور إلى البحر الأسود وهي محملة بالبضائع إلى بلاد مغول القفجاق مرتين في كل عام^(١) . كما تطورت العلاقات بين الدولتين إلى حد المسارعة إلى إيجاد إحدهما الأخرى عند تعرضهما لأزمة اقتصادية خانقة ، فقد حدث عندما تعرضت الأراضي المصرية لمجاعة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م ، زمن السلطان العادل كتبغا (٦٩٤ - ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م) بسبب انخفاض مستوى منسوب مياه النيل ، وتوقفه عن الزيادة ، فضلاً عن هبوب رياح عاصفة محملة بالأتربة ، أدت إلى فساد المحاصيل الزراعية التي كانت على وشك النضوج ، حيث أعقب ذلك غلاء عظيم ، وانتشار للأوبئة والحميات ، مما أثر على النواحي الاقتصادية والاجتماعية بمصر في ذلك الوقت^(٢) . حدث أن سارع الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني (٦٨١ - ٧٢٩هـ / ١٢٨٢ - ١٣٢٨م) إلى إرسال الغلال إلى الإسكندرية وخاصة القمح ، للإسهام في التخفيف من وطأة تلك الأزمة الاقتصادية التي ألت بالأراضي المصرية آنذاك^(٣) .

(١) ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) انظر: حامد زيان غانم ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٩ ، ٣٧ ؛ وانظر: أيضاً سامح عبدالرحمن فهمي ، القيمة النقدية في الوثائق المملوكية ، ص ٢١ .

(٣) عبّر بيبرس الدوادار عن تلك الإمدادات التي أرسلت إلى الأراضي المصرية بقوله " وتواترت (الغلال إلى الإسكندرية) من جزيرة صقلية والقسطنطينية وبلد الفرنجية " (انظر: زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٨٧) ؛ وانظر: أيضاً ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

وصفوة القول أنّ هذه العلاقة الوطيدة بين سلطنة المماليك وبيزنطة ، والتي أملت لها ظروف ومصالح سياسية واقتصادية ودينية أحياناً^(١) . كان لها مردودها الإيجابي ، في كبح جماح ميناء أياص الأرمني والحد كثيراً من ذلك النشاط التجاري المعادي ، الذي كان يمارسه ضد مواني دولة المماليك في مصر والشام .

وإمعاناً من سلاطين دولة المماليك في زيادة الضغط على أياص وزيادة النكاية فيه ، فقد عمدوا إلى تنشيط حركة تجارتهم مع البنادقة ، لتشجيعهم على الاستمرار في الاتجار مع مواني مصر والشام ، وبفضل هذه الإغراءات اتسع نشاط التجارة بشكل كبير في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون^(٢) بين البندقية ومواني الأسكندرية ودمياط وتيس ، كما استقبل نائب صفد سفارة بندقية في سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م تطلب امتيازات تجارية في المناطق الخاضعة لإدارته وهي صفد وعكا وصور وصيدا وجزء من دمشق ، فأرسل إلى الناصر بمصر يعرض عليه الأمر ، ويطلب توجيهاته في ذلك ،

(١) (٥٤) كان الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن قد عمل على إعادة إعمار جامع القسطنطينية ، الذي كان قد تعرض للتخريب والتدمير إبان الغزو اللاتيني للقسطنطينية سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م ، ومكن المسلمين من الصلاة فيه . وفي المقابل سمح المماليك وبالأذات منذ عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون لأباطرة بيزنطة برعاية مصالح المسيحيين في مصر والشام ، حيث أعيد فتح الكنائس التي أغلقت ، وتجديد ماتخرب منها ، فضلاً عن مطالبتهم بحماية المسيحيين المقيمين في الأماكن المقدسة في بلاد الشام ، وتمكين الحجاج من تأدية شعائر حجهم ، وتأمين عودتهم إلى بلادهم (انظر: ليلي عبد الجواد ، المرجع نفسه ، ص ، ٦٣ ، ١١٩) .

(٢) كان الناصر محمد بن قلاوون قد اعتلى عرش السلطنة ثلاث مرات الأولى استمرت سنة واحدة (٦٩٣ - ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤م) والثانية بين عامي (٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م) والثالثة ٧٠٩ - ٧٤١هـ / (١٣٠٩ - ١٣٤١م) ويبدو أن هذا النشاط التجاري تم في الفترة الثانية من حكمه .

ورد عليه الناصر برسالة موجهة إلى دوق البندقية دُوت بالعربية ، تضمنت السماح لرعاياه بالحضور إلى أراضي السلطان دون خوف على ممتلكاتهم ، وزاد على ذلك بأن التزم بتزويد البنادقة الذين سيفدون على بيت المقدس لزيارة الأماكن المقدسة فقط ، بحرس خاص يحمونهم من أي اعتداء ، كما وعد من يرغب من البنادقة في الاستقرار بمصر والشام بمعاملة كريمة ^(١) .

وعندما ساءت أحوال مملكة أرمينية الصغرى في عهد الملك ليو الخامس Leo V (٧٢٠ - ٧٤١هـ / ١٣٢٠ - ١٣٤١م) ، استغل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذلك الأمر وبادر بإرسال حملة كبيرة لمهاجمة مملكة أرمينية الصغرى ، تمكن جيشه خلالها من تدمير عدد من مدنها " وأمها أياس " على

(١) لمزيد من التفصيل ، انظر: عفاف سيد صبره ، العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠ - ١٤٠٠م ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ؛ وتُنيس : جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط (انظر: ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٥١) ؛ ودمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية على بحر الروم ، وهي ثغر من ثغور الإسلام (انظر: المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٤٧٢) ؛ وصفد : مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص ، وهي من جبال لبنان (انظر: المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٤١٢) ؛ والذي يجدر ذكره ، أن بلاد الشام قُسمت بعد أن خضعت لسلطنة المماليك إلى ست وحدات إدارية رئيسة أُطلق على كل واحدة منها اسم نيايه وهي : دمشق وحلب وطرابلس وحماء وصفد والكرک (انظر: طه تلجي الطراونة ، مملكة صفد في عهد المماليك ، ص ٩) ؛ وعكا أو عكة: بلد على ساحل بحر الشام من أعمال الأردن (انظر: ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٤٣) ؛ وصور : مدينة على ساحل بحر الشام ، وصفها المؤرخون بأنها مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة ، ليس لها طريق إلى البر إلا من مكان واحد له سبعة أبراج (انظر: العماد ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ١٩٨ ؛ أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤٣) ؛ وصيدا : مدينة على بحر الشام ، من أعمال دمشق ، شرقي صور بينهما ستة فراسخ (انظر: ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٤٣٧) .

حد تعبير القلقشندي - وذلك في سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م^(١) . وعلى إثر هذه الحملة الناجحة ولكي يتحاشى ليو الخامس هجوماً آخر على مملكته ، توسل إلى السلطان الناصر محمد بأن أرسل إليه سفارة سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م ، تعرض عليه عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس عشرة سنة ، ابتداء من السنة ذاتها ، تعهد ليو بمقتضاها بدفع جزية سنوية ، عبارة عن مبالغ نقدية باهظة ، إضافة إلى نصف دخل المكوس التي تُجمع في ميناء أياس ، مقابل أن يقوم السلطان الناصر محمد بإعادة بناء مدمرته جيوشه في الميناء نفسه إبان حملتها الأخيرة^(٢) . واستمر ليو ملتزماً بدفع هذه القطيعة لدولة المماليك ، حتى علم بأن المقر البابوي في روما ألحَّ على ملك فرنسا فيليب الخامس Philip V في سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م ، بتقديم مساعدة عاجلة لمملكة أرمينية الصغرى^(٣) . إذ يبدو أن هذا الإجراء شجع ليو الخامس على نقض الهدنة والتوقف عن دفع القطيعة المفروضة عليه ، وأقدم أهل أياس على القبض على من عندهم من

(١) انظر: صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٣٠ ، ٣١ : انظر أيضاً ، "أبوالفدا" المختصر في أخبار البشر ، ج٤ ، ص٩١ : الذهبي ، دول الإسلام ، ص٤١٤ ؛ وقد تعرضت مملكة أرمينية الصغرى لصراع داخلي بين الملوك والأمراء ذوي النفوذ وكبار رجال الدين ، بسبب خلاف حول مسألة الارتباط بروما والتحالف مع الغرب الأوربي . وأدى هذا الخلاف إلى صراع دموي ، ذهب ضحيته ليو الرابع وعمه هيثوم الثاني ثم أوشين الأول الذي خلفه ابنه ليو الخامس سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م ، وكان لا يزال قاصراً ، وظل تحت الوصاية حتى سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م ، الأمر الذي زاد من تردي الأحوال داخل دولته (انظر: سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص٢٧٠) .

(٢) ذكر القلقشندي أن الجزية التي فرضت على أرمينية الصغرى آنذاك ، بلغت " ألف ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف ، ثم حُط منها " (انظر: المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٣١) ويبدو أن هذا الإجراء الذي أشار إليه القلقشندي بالحط من قدر الجزية ، هو الذي جعل الدكتور سعيد عاشور يكتفي بقوله إن هذه الجزية كانت خمسين ألف " فلورين " أي مايعادل مائة ألف درهم ، ولعل ذلك أيضاً ما أشارت إليه المصادر الأجنبية (انظر: المرجع نفسه ، ص٢٧٠) .

(٣) انظر: سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص٢٧١ .

التجار المسلمين وحبسوهم " في خان ثم أحرقوه " ^(١) الأمر الذي دفع المماليك إلى معاودة إرسال جيوشهم لمهاجمة مملكة أرمينية الصغرى " لينقم العسكر على مدينة أياس حتى يرد مرسوم السلطان بما يُعتمد في أمرهم " . إلا أن ليو الخامس عندما سمع بمقدم جيش المماليك لمهاجمة بلاده ، إضافة إلى ما قام به التركمان وعسكر ابن قرمان الذين هاجموا مملكة أرمينية الصغرى «وتركوها أوحش من بطن حمار» - على حد تعبير المقرئزي - ^(٢) . عمد إلى استرضاء السلطان الناصر ، بأن بعث رسله في البحر إلى دمياط ، إلا أن الناصر رفض مقابلتهم ، فاضطر ليو إلى الاستعانة بنائب الشام سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي لكي يتوسط لدى السلطان في منع العسكر من مهاجمة بلاده ، مقابل أن يسلم للناصر جميع القلاع التي من وراء نهر جيحان ، ورغم موافقة الناصر على رد العسكر عن مهاجمة أرمينية الصغرى ، إلا أن ثلثة منه تجاهلت ذلك واتجهت إلى ميناء أياس حيث فرضت عليه حصاراً محكماً بدأ يوم الاثنين ثاني عشر شوال من سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م ، واستمر حتى يوم الخميس خامس عشر . وهنا يبدو أن السلطان الناصر محمد وكذا نائب الشام غضا الطرف عن استمرار ذلك الحصار ، بدليل ما ذكر من أن نائب حلب علاء الدين الطنبغا الذي كان يقود القوة الإسلامية التي كانت تحاصر أياس ، أحضر خمسين نجاراً عملوا له زحافتين وستارتين ، ثم جُرت إلى قرب السور ، ومن ثم بدأ الجيش هجوماً شاملاً على المدينة ، حيث تمكن من اقتحام أسوارها ودخولها بعد قتال عنيف دام ثمانية أيام ، وألحق المهاجمون بالمدينة أضراراً بالغة ، وهدموا برج أياس الذي كان مبنياً داخل البحر . ثم رحل عسكر المماليك عن أياس بعدما أقاموا فيها اثنين وسبعين يوماً وذلك

(١) أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١١٥ : الذهبي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٣ .

(٢) انظر: السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٢٨ : كان يحكم الدولة القرمانية في هذه السنة بدر الدين محمود بن قرمان (انظر: كليفورث - أ - بوزورث ، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ص ١٩٠) .

في ذي الحجة من السنة نفسها^(١) . بعد أن " استتابوا بالبلاد المذكورة نواباً"^(٢) .

ويتضح من هذا أن معظم أراضي مملكة أرمينية الصغرى غدت ، منذ هذه السنة تابعة لسلطنة المماليك ، ولعل هذا ما عناه ابن كثير ، الذي ذكر أن جيش المماليك تسلم إبان غارته على بلاد أرمينية الصغرى سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م " سبع قلاع "^(٣) ، وهذا ما أكدته عدد من المصادر الأخرى ، التي ذكرت أن عسكر السلطان الناصر محمد ، عاد من أرمينية الصغرى إلى الشام ومصر ، بعد أن أثخن فيها واستولى على مدينة أياس وتسلم قلاع كواره

(١) انظر: المقرئزي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ق٢ ، ص٤٢٨ - ٤٣٠ ؛ وانظر أيضاً: أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١١٩ ؛ ابن دقماق ، الجواهر الثمين ، ج٢ ، ص١٦٥ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ص٤٢٤ ؛ ابن الوردي ، تنمة المختصر ، ج٢ ، ص٣١٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ج٤ ، ص١٧٨ ؛ وقد انفرد المقرئزي بذكر هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٧٣٨هـ ، بينما أجمعت البقية على أنها كانت سنة ٧٣٧هـ ؛ والزحافة أو الدبابة وُصفت بأنها " آلة سائرة تتخذ من الخشب الثمين ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك فتتجر " (انظر الحسن بن عبدالله ، آثار الأول ، ص١٩٣) ؛ أما استخدامها فيكون بإدخال فرقة من العسكر بها لمهاجمة الأسوار (انظر ، عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص٢٤) ؛ والستائر ومفردها ستارة : عبارة عن حائط خارجي وهي مصنوعة من الجلد واللبود المبللة بالخل والشب والنطرون ، تستخدم لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط . ومنها ما يستخدم لوقاية الجنود من القذائف (انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٣٠٣ ، حاشية المحقق : الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام العلم في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء ، ص١٨ ، ١٩) .

(٢) أبو الفداء ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١١٩ .

(٣) ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص١٧٨ .

ونجيمة وسرفندار وغيرها^(١) .

وخلاصة القول ، أن سيطرة المماليك على ميناء أياس وغيره من مدن وقلاع أرمينية الصغرى ، كانت سيطرة نهائية بدليل ما ذكر من أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وزع جميع ما استولى عليه جيشه من أراضٍ في أرمينية الصغرى كإقطاعات بين نوابه في بلاد الشام " وأمر فيها جماعة من التركمان والأجناد " وأوعز إليهم بضرورة المبادرة بالتوجه إلى تلك البلاد للإشراف على فلاحتها وجباية خراجها ، وبلغ أمر تحكمهم فيها أن " استعملوا الأرمن في فلاحتها " ^(٢) . وظل الأمير تنكز نائب الشام مهتماً بتلك البلاد يتردد عليها بين الحين والآخر ففي سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م توجه إليها بنفسه لكشف حالها ، وعاد عنها بعد أن عمّرّها " بالرجال والأبقار والغلال " ^(٣) .

وهكذا غدا أياس بعد سيطرة المماليك عليه ، مصدر تموين لدولتهم في مصر والشام ، يُجبى منه ثمرات كل شيء ، واستمر على هذه الحال حتى قرر سلاطين دولة المماليك السيطرة كلياً على مملكة أرمينية الصغرى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٥م ، عندما شنوا عليها هجوماً شاملاً ، انقضت على إثره ، وغدت نسياً منسياً^(٤) .

(١) المقرئزي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ق٢ ، ص٤٢٩ ، ٤٣٠ : أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١١٩ : ابن الوردي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣١٤ : ابن دقماق ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٦٥ .

(٢) انظر: المقرئزي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ق٢ ، ص٤٣٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٤) للوقوف على تفصيله ، انظر: سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٧٦ - ٢٧٨ .

فهرس المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية :

- ابن الأثير (علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)
- الكامل في التاريخ ، ط بيروت سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي ، ت ٩٣٠ هـ / ١٥٤٤ م)
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١ ، ق ١ ، تحقيق محمد مصطفى ، ط ، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ابن أيبك الدوادار (أبوبكر عبدالله ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
- كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ المعروف بالدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق ألرخ هارلمان ، ط القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، ت ٨٤٧ هـ / ١٤٧٠ م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)
- صورة الأرض ، ط بيروت ١٩٧٩ م .
- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله ، ت حوالي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م)
- المسالك والممالك ، تحقيق محمد مخزوم ، ط بيروت سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من
ذوي الشأن الأكبر ، ط بيروت ١٩٧٥ ، ١٩٥٨ م .
- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي ، ت
٨٠٩هـ)
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين عز
الدين علي ، ط بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل ، ت ٨٧٢هـ)
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، غني بتصحيحه بولس
راويس ، ط باريس سنة ١٨٩٣ م .
- ابن شاهين الملطي (عبدالباسط بن خليل ، ت ٩٢٠هـ)
نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين
عز الدين علي ، ط القاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد ، ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) .
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تقديم عبدالله محمد الرويش ، ط
دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢هـ /
١٢٣٤م) .
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق
جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
- ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي الحلبي ، ت ٦٨٤هـ /
١٢٨٥)
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، ط
دمشق ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢ م .

- ابن ظافر الأزدي (علي بن ظافر ، ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) .
أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والشغور ، تحقيق تيممة الرواف ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .
- ابن عبدالظاهر (محيي الدين عبدالله بن رشيد السعدي ، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) .
- ١ - **الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر ، تحقيق عبدالعزیز الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .**
- ٢ - **تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، ط القاهرة ١٩٦١م .**
- ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج الملطي ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) .
- ١ - **تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة ، وقدم له الدكتور جان موريس فييه ، ط بيروت سنة ١٩٩١م .**
- ٢ - **تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت .**
- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) .
- ١ - **بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، ط دمشق سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .**
- ٢ - **زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، ط دمشق سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .**
- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد ، ت ١٠٩٨هـ / ١٧٧٥م) .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط بيروت .**

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي ، ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)
- تاريخ ابن الفرات ، المجلد الثامن ، تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين ، ط بيروت .
- ابن الفوطي (كمال الدين عبدالرازق بن تاج الدين أحمد الشيباني ، ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م)
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق محمد رضا ومصطفى جواد ، ط بغداد ، ١٣٥١هـ .
- ابن القلانسي (أبويعلی حمزة ، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)
- ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٦م .
- ابن كثير (أبو الفدا الحافظ بن كثير ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٦م)
- البداية والنهاية ، ط بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط ١٩٥٧م .
- ابن الوردي (زين الدين عمر ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٨٤م)
- تنمة المختصر في أخبار البشر ، ط النجف سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، ت ٧١١هـ / ١٣١١م)
- لسان العرب ، ط بيروت .
- أبو شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م)

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ط القاهرة سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م .

- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر ، ط بيروت .

- الإصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي ، ت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) .

المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني ، ومراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

- بيبرس الدوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م)

١ - التحفة الملوكية في الدولة التركية ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان ، ط القاهرة سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨م .

٢ - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، تحقيق زبيدة عطا ، ط جدة .
- الحريري (أحمد بن علي ، كان حياً سنة ٩٢٦هـ)

الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على ديار المسلمين ، تحقيق سهيل زكار ، ط دمشق سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- الحسن بن عبدالله

آثار الأول في ترتيب الدول ، ط القاهرة سنة ١٢٩٥هـ .

- الذهبي (الحافظ شمس الدين ، ت ٧٤٦هـ / ١٣٥٤م)

دول الإسلام ، ط بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- رشيد الدين الهمذاني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير

حفيد موفق الدين الهمذاني ، ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)

- جامع التواريخ ، أو تاريخ المغول ، المجلد الثاني ، الجزء الأول والثاني ،
ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين ، ط القاهرة .
- سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، ت ٦٥٤هـ /
١٢٥٦م)
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ج ٨ ، ط حيدر آباد سنة ١٣٧٠هـ /
١٩٥١م .
- شافع بن علي
- حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق عبدالعزیز
الخويطر ، ط الرياض سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- الطبري (محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ)
- تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط بيروت
١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- الطرسوسي (مرضي بن علي ، عاش في القرن السادس الهجري)
- تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر
أعلام العلم في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء ، تحقيق كلود
كاهن ، نشر مجلة معهد الدراسات الشرقية في دمشق ، ج ١٢ ، سنة
١٩٤٧ ، ١٩٤٨ .
- العماد الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد ، الشهير بالعماد
الكاتب ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)
- الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، ط القاهرة
١٩٦٥م .
- العيني (بدر الدين محمود ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ، تحقيق
محمد محمد أمين ، ط القاهرة سنة ١٤٠٧ - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ -
١٩٨٨ م .

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)

آثار البلاد وأخبار العباد ، ط بيروت ١٩٦٠ م .

- القلقشندي (أحمد بن علي ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ط القاهرة ، سنة ١٩١٩ م .

- المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ، ت ٨٤٥ هـ /

١٤٤١ م)

السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ق ١ ، ٢ ، ٣ ، ج ٢ ، ق ٢ ، تحقيق

محمد مصطفى زيادة ، ط القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، ت ٧٣٣ هـ /

١٣٣٣ م)

نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٨ ، ط القاهرة .

- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ، ت ٦٢٦ هـ /

١٢٢٩ م)

معجم البلدان ، ط بيروت سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

- اليونيني (قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد البعلبكي ، ت ٧٢٦ هـ /

١٢٢٦ م)

ذيل مرآة الزمان ، ط حيدر آباد .

ثانياً : المصادر الأجنبية :

- فوشيه الشارترى (Fulcher of chartres) تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية فرنسيس ريتاريان (Frans Rita Ryan) ونقله إلى العربية زياد جميل العسلي ط : عمان ١٩٩٠ م .
- ماركو بولو
- رحلات ماركو بولو ، ترجمها إلى الإنجليزية : وليم مارسدن ، وإلى العربية عبدالعزيز جاويد ، ط القاهرة ١٩٩٥ م .
- مؤلف مجهول
- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، ط القاهرة ١٩٥٨ م .
- وليم الصوري ، رئيس أساقفة صور (William Archbishop of Tyre) تاريخ الحروب الصليبية ، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار . (A History of Deeds Done Beyond The Sea) .
- نقله إلى العربية وقدم له ، سهيل زكار ، ط دار الفكر ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة :
- أحمد عدوان
- الدولة الحمدانية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨١ م .
- بدر عبدالرحمن محمد
- الأغالبة والادارسة في بلاد المغرب ، ط القاهرة سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- جوزيف نسيم يوسف
- تاريخ الدولة البيزنطية ، ط الاسكندرية سنة ١٩٨٤ م .
- حامد زيان غانم

١ - الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر في عهد سلاطين المماليك ، ط
القاهرة ، سنة ١٩٧٦ م .

٢ - الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ، ط القاهرة سنة
١٩٧٧ م .

- حامد غنيم أبوسعيد

١ - الجبهة الإسلامية المتحدة ، ج ٣ ، ط القاهرة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

٢ - عصر الدول الإقليمية ، ط القاهرة ١٩٧٠ م .

- حسنين محمد ربيع

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ط القاهرة سنة ١٤٠٢هـ /
١٩٨٣ م .

- خليل ساحلي أوغلو

تغير طرق التجارة في القرن السابع عشر ، والتنافس بين مينائي طرابلس
والإسكندرونة ، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ
بلاد الشام الذي عقد في كلية الآداب بجامعة دمشق ، من ٢٧ ذي الحجة
١٣٩٨ إلى ٣ محرم ١٣٩٩هـ / ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ إلى ٣ كانون
الأول ١٩٧٨م ، الجزء الأول .

- سامح عبدالرحمن فهمي .

القيمة النقدية في الوثائق المملوكية ، ط مكة سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

- ستيفن رنسيما

١ - تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، ط بيروت
١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م .

- سعيد عبدالفتاح عاشور

١ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت سنة
١٩٧٧ م .

٢ - الحركة الصليبية ، ط القاهرة ١٩٨٢ م .

- السيد الباز العريني
المغول ، ط بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- صابر محمد دياب
المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والثغور الجزرية والشامية خلال
القرن الرابع الهجري ، ط المطبعة التجارية الحديثة ، سنة ١٤٠٤ هـ /
١٩٨٤ م .
- طه ثلجي الطروانة
ملكة صفد في عهد المماليك ، ط بيروت سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- عبدالرحمن زكي
السلاح في الإسلام ، ط القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- عبدالسلام عبدالعزيز فهمي
تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ط القاهرة سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- عبدالله بن سعيد الغامدي
١ - جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن
السابع الهجري ، ط مكة ١٤١٠ هـ .
- عفاف سيد صبرة
العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام من ١١٠٠ -
١٤٠٠ م ، ط القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
- علي محمد عودة الغامدي
١ - بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ط مكة المكرمة سنة ١٤٠٤ هـ /
١٩٨٤ م .
- ٢ - بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ط مكة المكرمة سنة ١٤٠٨ هـ /
١٩٨٨ م .
- ٣ - حصن بغراس ودوره الحربي في عصر الحروب الصليبية ، بحث منشور
ضمن ندوة الإطار التاريخي للحروب الصليبية التي عقدها اتحاد المؤرخين

- العرب بمقره في القاهرة في شهر رجب ١٤١٦هـ / نوفمبر ١٩٩٥ م .
- عليه عبدالسميع الجزوري
- الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، ط القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- عمر كمال توفيق
- مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي " الإمبراطور البيزنطي يوحنا تزمسكس وسياسته الشرقية ، ط الاسكندرية سنة ١٩٦٧ م .
- فتحي أبو يوسف .
- المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال ، ط القاهرة ، سنة ١٩٧٨ م .
- فتحي عثمان
- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ط القاهرة .
- فؤاد عبدالمعطي الصياد
- المغول في التاريخ ، ط بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- ف . هايد (W. HEYD)
- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا محمد رضا ، مراجعة : عز الدين فوده ، ط القاهرة ١٩٩١ م .
- ليلي عبدالجواد إسماعيل
- علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد ٤٦ ، ٤٧ ، لسنة ١٩٨٦ م ، ط القاهرة ١٩٨٨ م .
- كارل بركلمان
- تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط بيروت ١٩٧٧ م .
- كلود كاهن

- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، ط القاهرة
، سنة ١٩٩٥ م .
- كليفورت - أ - بوزورث
- الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، دراسة في التاريخ والأنساب ،
ترجمة حسين علي اللبودي ومراجعة سليمان إبراهيم العسكري ، ط
الكويت ١٩٩٥ م .
- كي لسترنج
- بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط
بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- محمد سالم بن شديد العوفي
- دراسة في الثغور " ثغر قزوين " بحث منشور ضمن الكتاب السنوي
لقسم التاريخ والحضارة ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
 بالرياض ، العدد الأول سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- محمد علي حيدر
- الدويلات الإسلامية في المشرق ، ط القاهرة ١٩٧٤ م .
- محمد قنديل البقلي
- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ط القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
- محمود سعيد عمران
- ١ - معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية " مدخل لدراسة التاريخ السياسي
والحربي " ، ط بيروت ١٩٨١ م .
- ٢ - المغول وأوربا ، ط الإسكندرية سنة ١٩٩٦ م .
- ٣ - شارل كونت أنجو ، بين القسطنطينية وتونس والقدس ، بحث منشور
في مجلة المؤرخ العربي ، التي تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ،
العدد السادس ، المجلد الأول ، مارس ١٩٩٨ م .